مجلة *أسيناگ* ⵓⵙⵉⵏⴰⴳ، عدد مزدوج 4-5، 2010، ص 33-40

التاريخ الأدبي الأمازيغي: بين الضرورة والمنهج

يشــو بنعيسى
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

L'objectif de l'article est de clarifier trois points essentiels pour toute réflexion sur l'histoire de la littérature amazighe. Le premier point aborde l'idée selon laquelle la recherche en matière de la littérature amazighe ne peut être bénéfique si elle n'est pas fondée sur un travail préliminaire de l'histoire littéraire. Le deuxième montre qu'une critique littéraire basée sur des méthodes scientifiques et sur une typologie des genres littéraires est également tributaire d'un travail préalable sur l'histoire littéraire. Le troisième point met en relief la nécessité d'asseoir l'histoire littéraire amazighe sur des fondements scientifiques propres.

يهدف هذا المقال إلى استيضاح ثلاث نقط أساسية، تبدو الحاجة ماسة إليها كلما تم التفكير في التاريخ الأدبي الأمازيغي. وتمثل هذه النقط جدوى وفحوى ممارسة التاريخ الأدبي في كل الثقافات الإنسانية.

تناقش النقطة الأولى فكرة مفادها أن التاريخ الأدبي عمل ضروري ينبغي أن يُيسر ويمهد الطريق أمام الباحثين في الأدب الأمازيغي، فيساهم، باعتباره عملية تجميع وتصنيف وترتيب، في تأسيس وتشكيل نظرية أجناسية أدبية هامة.

وتؤكد النقطة الثانية على أن مسألة دراسة الأجناس الأدبية وفق منهجية علمية تستند إلى النظريات النقدية الأدبية ومناهجها الحديثة، لا يمكنها أن تتم دون وجود متن أدبي معروف في نشأته ومضبوط على مستوى سيرورته وتحقيبه الزمني، ودون التعرف على أهم الكتابات التي يمكن أن تشكل، ضمن تلك السيرورة التاريخية، انزياحا جماليا معينا وفق منظور قرائي ما.

في حين تعالج النقطة الأخيرة، في هذا المقال، ضرورة التأسيس للتاريخ الأدبي الأمازيغي وفق منظور علمي منهجي، يتجاوز بشكل أو بآخر المحددات الأساسية التي قام عليها التاريخ الأدبي المغربي عموما والمستعارة من الطرائق المعتمدة في التأريخ للأدب العربي.

ويشكل هذا المقال تتمة تأملية للأعمال التي أعطى انطلاقتها مركز الدراسات الفنية والتعابير الأدبية والإنتاج السمعي البصري بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، خلال المائدة المستديرة التي نظمها في يوليوز 2004. [1]

وقبل تناول المحاور المشار إليها آنفا، لابد من التعرف على أهم دواعي التأسيس لممارسة التاريخ الأدبي الأمازيغي المغربي، في سياق النهضة التي تعرفها الأمازيغية خلال السنوات الأخيرة.

1. نُشرت أعمال هذه المائدة المستديرة، ضمن منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، في كتاب يحمل عنوان: "تاريخ الأدب الأمازيغي مدخل نظري"

1.دواعي التأسيس لممارسة التاريخ الأدبي الأمازيغي

يلاحظ الباحث في مجال التاريخ الأدبي المغربي أن المداخل المعتمدة لإعداده لم تأخذ بعين الاعتبار المكون الثقافي الأمازيغي؛ إذ لم يحظ هذا الأخير، في تقديرنا، باهتمام مماثل لما عرفه مكون الأدب المكتوب باللغة العربية واللغات الأجنبية الأخرى خاصة الفرنسية. ومن المسوغات العلمية والموضوعية لإعادة النظر في الكيفية التي كُتب بها هذا التاريخ الأدبي، في هذه الآونة بالذات من مسار الثقافة المغربية، ما يلي:

- تعدد الأدب الأمازيغي وغناه وتنوعه، وشساعة فضائه.
- تزايد الاهتمام باللغة والثقافة الأمازيغيتين وبالموروث الأدبي سواء من خلال ما خلفه الباحثون الكولونياليون الأوائل، أو ما قام به الباحثون المعاصرون المغاربة عموما، ولاسيما الأمازيغ منهم؛
- الوضع الاعتباري الجديد الذي أصبحت تتمتع به اللغة والثقافة الأمازيغيتان، أعطى هامشا للبحث والنبش والنشر للموروث الثقافي الأمازيغي؛
- تهيئة اللغة الأمازيغية من ناحيتي الوضع والمتن؛
- اعتبار الأدب الأمازيغي بشقيه الشفهي والمكتوب مكونا أساسيا للأدب المغربي، وبالتالي فالتأريخ لهذا الأدب لا يستقيم بإغفال رافد مهم من روافده الأساسية؛
- إعادة الاعتبار للأدب الأمازيغي وجعله يتبوأ المكانة اللائقة به داخل المدرسة المغربية من خلال الكتاب المدرسي الذي يعتبر أهم أدوات التنشئة الاجتماعية والأدبية والفكرية والثقافية للناشئة؛
- تطور مفهوم تاريخ الأدب نفسه ومحاولة تحديد مجالات اشتغاله وعلاقته بالحقول المعرفية الأخرى المتاخمة له، من خلال الأعمال النظرية العلمية والأكاديمية لثلة من الباحثين محليا ودوليا؛
- ظهور نظريات[2] تهتم بالأدب على مستويات التلقي والقراءة والتأويل، أعادت الاعتبار للمتلقي عموما وللقارئ على نحو خاص.

إذا كانت هذه هي المسوغات العلمية والموضوعية التي سمحت بالتفكير في تعميق النظر والتأمل في التأريخ للأدب المغربي عموما، والاعتناء بجانبه الأمازيغي خصوصا، فإن واقع الأدب المغربي يؤكد، بما لا يدع مجالا للشك، بأن الأدب الأمازيغي يشكل الوجه الثاني للعملة الواحدة التي يمثلها الأدب المغربي. ومع ذلك، فإن التاريخ الأدبي الأمازيغي تعوقه عدة صعوبات، لا يمكن المضي به إلى الأمام دون تجاوزها أو على الأقل، معرفة طبيعتها .

يلعب المتلقي عموما والقارئ خصوصا، باختلاف أنواعه، دورا أساسيا في إخراج النص الأدبي إلى الوجود. ومن ثمّ، يجب الاهتمام بالنظريات التي تمنح القارئ وفعل القراءة مكانة متميزة في نظرية الأدب عموما وفي مجال التأريخ الأدبي على نحو خاص.

2.ما هي الصعوبات التي تعترض التأسيس لممارسة التاريخ الأدبي الأمازيغي؟

يواجه التاريخ الأدبي الأمازيغي عدة مشاكل؛ من بينها، أنه لم ينطلق بعد، ثم إن المتن الذي يشتغل عليه يتسم بخصوصيات تفرض على الباحث منهجا ملائما في التناول والدرس؛ إنه متن غير

---

[2]. من هذه النظريات خصوصا: نظرية التلقي، ونظرية التجاوب، ونظرية فعل القراءة: ومن منظريها روبرت ياوس وولف غونغ إيزر...

موثق بيبليوغرافيا، وشفهي في بعض "التنويعات"[3] اللغوية، هذا بالإضافة إلى تباينه من حيث ما جُمع من قبل الباحثين الغربيين في فترة ما قبل الحماية وإبانها، وبين ما جمع في العصر الحديث من قبل الدارسين المغاربة.

تفيد الخلاصات المشار إليها أعلاه أن التأسيس للتأريخ الأدبي الأمازيغي ينبغي أن يستند إلى مداخل معرفية ليست بالضرورة كتلك التي تأسس عليها التاريخ الأدبي العربي في المشرق. وقد بينت بعض الأعمال أن تعامل المغاربة، والمحدثين منهم خصوصا، مع ثقافتهم العالمة استهدف البحث في الهوية الثقافية "فحاولوا تنظيم فروعها في ذاكرتهم وتبيان وظائفها التوحيدية والتخصيصية. وقد تبعوا المشارقة منهاجيا حينا وخالفوهم طورا آخر".(مفتاح، 1996: 72).

وعليه، "فإن إعادة النظر في تحقيب ثقافة المغرب بناء على ظروف عالمية وجهوية وداخلية شيء يفرض نفسه على الباحث الواعي بما يروج حواليه." (نفسه: 67)، فكيف يمكن إعادة النظر في مفهوم التاريخ الأدبي المغربي على نحو يسمح بأخذ مختلف مكوناته بعين الاعتبار ؟ ثم ألا ينبغي أن يتم ذلك وفق "متطلبات معرفية وعلمية (...)، حتى لا يكون اعتباطيا وعبثيا وإنما يكون نتيجة لقراءات وتأويلات لمتون، ونتيجة تأمل مسار تاريخ المغرب السياسي والثقافي والاجتماعي، وخلاصة للتأمل في ذلك المسار."(نفسه: 67)

بالإضافة إلى المشاكل التي يواجهها الأدب الأمازيغي المشار إليها سلفا، فإن تاريخ الأدب عموما تعترضه عدة صعوبات ترتبط أساسا بمفهومه وبماهيته وبعلاقته بموضوعه الذي غالبا ما "لا يكاد يستقر على ذات محددة بعينها، [لأنه] موضوع مركب، وغالبا ما يتحدد بغيره أو بغير ذاته، لأنه لا يملك ذاته وحده".(بوحسن، 2003: 61)، من ثم، فإن إشكالية التاريخ الأدبي لها تجليات متعددة إن على مستوى المفهوم أو الممارسة.

3. ما هي تجليات الإشكالية الأساسية للتأريخ الأدبي عموما؟

1.3. الإشكالية المفاهيمية

يطرح التأريخ الأدبي عموما، في اعتقادنا، إشكالية مزدوجة؛ منها ما يتصل بالمفهوم ومنها ما يرتبط بالممارسة. من ثم تنبع مشروعية السؤالين التاليين:

لماذا ينبغي تناول إشكالية التاريخ الأدبي في جانبيها المفهومي والممارستي؟ وهل يمكن الحديث فعلا عن وجود إشكالية في التاريخ الأدبي على هذا المستوى؟

قد يقتضي الجواب عن هذين السؤالين، في البداية، الوقوف عند نواة هذه الإشكالية المشار إليها سابقا، ومحاولة ملامستها في إحدى تجلياتها، التي تتحدد، في رأينا، وحسب ما جاء به "كليمان موازان Clément Moison، في مدى إمكانية الحديث عن الخاصية العلمية للتاريخ الأدبي، إلى جانب باقي التواريخ الأخرى (Moison, 1987 : 7). ومن ثمّ، فإن البحث في مدى علمية التاريخ الأدبي، يفرض خيارين متعارضين لكل منهما مبرره الخاص في نفي أو إثبات صفة العلمية عن التاريخ الأدبي. وقبل التطرق إلى هذين الخيارين، نتساءل: لماذا نتناول هذا التجلي الإشكالي بعينه وليس غيره؟

نعتقد أن الدعامة الأساسية التي تشد بنيان التوجهات المعرفية ذات الحس العلمي، تتمثل أساسا في مدى قدرة هذه المعرفة على نهج سبيل الاستدلال والإقناع اللذين لا يمكن إحرازهما إلا في إطار نسق مفاهيمي علمي.

---

[3]. نقصد بالتنويعات هنا المفهوم الفرنسي "les variétiés" الذي وظفه فيشمان في مجال السوسيولسانيات (Joshua A . Fishman 1971)

إن البحث في الشروط التي بإمكانها أن تحقق "علمية" أي توجه معرفي كيفما كان نوعه، يجعلنا نلمس حقيقة وجود مشكل في التاريخ الأدبي على مستوى التحديد المفهومي والممارساتي؛ ومما يعمق من أزمة التاريخ الأدبي على هذا المستوى هو" أن القيمة العلمية لتاريخ الأدب لا تكمن في موضوعية النتائج التي يتوصل إليها، ولكنها في المظهر الإجرائي لاكتساب التجربة [وجعلها] متيسرة للآخرين، أي في المناهج المستعملة في البحث في تاريخ الأدب، وفي التصريح بالنظريات المستعملة (...)أو ما يدعوه "شميدت" بالطابع التجريبي للبحث عن الموضوعات التي يمكن أن تكون أهلا للتاريخ" (بوحسن، 2003: 75).

وإذا كان من شروط تحقيق "علمية" نشاط فكري معيّن، تحديد موضوعه، فإن المشكل الحقيقي للتاريخ الأدبي يتمثل في هذا المستوى؛ حيث إن تحديد الموضوع ينبغي أن يراعي خاصيتي "التّجانس" و"التّجريد"، باعتبارهما العلامتين الأساسيتين اللتين ترسّخان شعور الاشتغال داخل الحقل العلمي، وبالرغم من غياب إجماع حول موضوع التاريخ الأدبي برسم حدوده الآنطولوجية، فإن خاصية "التّجانس"، لا يمكن أن نحسم في تحقيقها، هي الأخرى، إذا لم نحدّد مسبقا ما نقصده بمفهوم "العلمية" التي نتوخى تحقيقها في مجال التاريخ الأدبي.

2.3. إشكالية العلمية في التاريخ الأدبي

عندما نتساءل عما إذا كان من الممكن أن يصبح التاريخ الأدبي معرفة "علمية"، تفسح المجال لخطاب حقيقي يكون شكلا من "أشكال المعرفة التواصلية التي تركز على الظاهرة التي تعتبر أدبية تبعا للمعيار الضمني أو الصريح للأدبية" (بوحسن، 2003: 78)، يجب أن نحدد سلفا بأن كلمة "علم" لم تعد تعني اليوم ما كان يعنيه بها جان جاك أمفير Jean Jacques Empere في 1871؛ حينما تناول الجانب اللغوي في الأدب الفرنسي، وخاصة النصوص التي كتبت في القرون الوسطى، حيث كانت لغة تلك النصوص لغة بربرية langage Barbare حسب تعبيره. بل نقصد بالعلمية ضرورة "تحول الدراسات الأدبية إلى الدراسات التجريبية في إطار الدراسات الاجتماعية والثقافية... وبهذا يكون النسق الأدبي جزءا من النسق الاجتماعي العام" (بوحسن، 2003: 78).

إن المفهوم الذي يمكن أن نقدمه لكلمة "علم" إذن، لا يتجاوز مدى قدرة المعرفة العلمية على تقديم نفسها في شكل فرضية أساسية، أو متوالية من الفرضيات الخاصة التي تستمد منها النتائج على نحو استقرائي.

وفي هذه الحالة يمكن أن نصف كل توجه، ينحو هذا المنحى، بـــ " الكشفي/ التجريبي" وذلك تحقيقا لفهم مرن للعلم. ويتضمن هذا التوجه مقولات ومقومات معرفية وفكرية تجعله قريبا من العلم المخبري التجريبي، إذ يركز، هو الآخر، على الفرضيات، ودراستها قبل أن يخلص إلى النتائج التي لا تتحكم فيها الصدفة أوالعفوية.

تأسست بعض النظريات الحديثة على هذا النحو، فتضمنت جملة من المقولات المركزة التي تشبه إلى حد كبير القواعد العلمية والصيغ الرياضية، التي تفرض على الرياضي وضعها قبل بدء عملية التحليل والاستدلال، حيث يعمل الباحث، الذي يستفيد من تلك النظريات، على الأخذ بمقولاتها وبجهازها المفاهيمي النظري المؤسس لها بشكل دقيق، وقد لا يتطلب منه الأمر، في بعض الأحيان، سوى ترجمة فعلية لهذه المقولات أثناء الاشتغال على ظاهرة معينة.

ولنا في هذا النوع من النظريات التي تنطوي على الحس العلمي ما يؤكد ما ذهبنا إليه؛ إذ نجد مثلا أن "هانس روبيرت ياوس Jauss"، حين صاغ نظرية "جمالية التلقي"، استعار مفهوم "النسق" كما وظفه "فرديناند دي سوسير" في الحقل اللساني، يقول ياوس: "يعمل الإنتاج والتلقي الأدبيان بالطريقة ذاتها التي يعمل بها الكلام واللسان، ومن ثم أمكن صوغ التاريخ الأدبي كنسق مؤلف من سلسلة من المتواليات التزامنية [...] التي تتبادل التأثير باستمرار داخل تاريخ بنيوي للأدب ولوظائفه." (Jauss, 1978 : 116)

يتضح من خلال هذه الفقرة أن "ياوس Jauss" ينطلق من فرضية مسعفة في إنشاء نظريته حول التاريخ الأدبي. ومن سمات هذه النظرية خضوعها لمنطق "كشفي/تجريبي مبني على أفق الانتظار"، لا يبتعد كثيرا عن المنطق العلمي، وذلك لكون نظرية التلقي، كما قدمها ياوس، في عمومها "ليست مجرد مقاربة جمالية لنصوص معينة، إلى جانب المقاربات الأخرى، مثل الشكلانية والبنيوية والماركسية فحسب، ولكنها جزء من نسق فكري عام بدأ يؤسس نفسه منذ الستينيات، معتمدا على علوم التحكم الذاتي والإعلاميات والبيولوجيا الحديثة والفلسفات الاجتماعية الداعية إلى حرية الأفراد في ظل أنظمة ديموقراطية. ويؤطر هذا كله بإبستيمولوجيا، تدعى الإبستيمولوجيا أو علم المعرفة التشييدية التي تحاول أن تمحي الإبستيمولوجيا الوضعية بصفة نهائية، وهي ذات مسلمات معينة يجدها المهتم في كتب الفلسفة وفي بعض الدراسات التي تتناول بناء نماذج الأنساق المعتمدة" (مفتاح، 1994 : 44)

وعليه، يمكن القول إن العلم، في مفهومه التجريبي المخبري، لم يعد يشمل كل مكونات "الحقل" العلمي، إذ تبقى البنيات المعرفية الأخرى التي يتضمنها عبارة عن تجارب اجتماعية تقابل تلك التي تجرى داخل المختبر، وقد يذهب بنا القول إلى أن التجربتين المخبرية والاجتماعية متضامنتان من حيث أصلهما المعرفي " التجريبي"، رغم ما يبدو بينهما من تنافر حاد شبيه بما يجمع بين الطبيب والمشعوذ(Stingers, 1993 :32). كما أن الشرطين السابقين، اللذين أوردناهما بخصوص الحديث عن علمية المعرفة بشكل عام، والمتمثلين في تحديد الموضوع أولا ثم المنهج الذي يخول فهم وإدراك هذا الموضوع ثانيا، وأساسا خاصية "التجانس"، التي لم تعد ــ وحسب هذا الفهم المرن للعلم ــ متحجرة، أصبحا يسايران مفهوم العلم في مرونته.

وتأتي عملية البحث في طبيعة خاصية "التجانس"، لتعمق مأزق الباحث في مجال التاريخ الأدبي، وذلك حينما يدرك بأن موضوع هذا الأخير، المتمثل في "الأدب"، غير متجانس، إذ يجمع بين الأدب والمجتمع. لكن رغم ذلك، ينتظم موضوع هذا النتاج المعرفي داخل نظام تراتبي علائقي وتوليفي لمختلف مكوناته المتغيرة باستمرار، بفضل انفتاح نسقه وقدرته على صيانة هذا النظام. هنا إذن تتجلى مرونة خاصية "التجانس"، حيث يمكن أن يُفهم منها الخيط الناظم للمكونات المختلفة للظاهرة الأدبية، إلى درجة تتفاعل فيها هذه المكونات لتؤسس لوجود نص متميز يتموقع بين ما هو واقعي وما هو خيالي إبداعي.

لقد أشرنا سابقا إلى أنه، لفهم النسق الحقيقي للتاريخ الأدبي، يجب الانطلاق من الحقل النظري بمجموع مكوناته، مع المرور بالحقل التجريبي وما يتألف منه، وذلك حتى نتمكن من خلق النموذج الذي يمكننا من إدراك فعلي لموضوع التاريخ الأدبي، ويمدنا بالإجراءات المفاهيمية المساعدة على البحث فيه، وذلك لكون النموذج بمثابة المحرك الأساسي للعلوم العقلية التي تنطلق من النظرية نحو الواقع.

وفي اعتقادنا، إن هذه العملية هي ذاتها ما يقوم به التاريخ الأدبي حينما ينفتح على الفكر والواقع في نفس الوقت، حيث يعمل على تنظيم الحياة وتبادل العلاقات من أجل فهم حقيقي للنسق الذي يشتغل في إطاره التاريخ الأدبي (يشو، 1999: 22). وانطلاقا مما أسلفنا حول ضرورة ضبط الحقل النظري عبر الحقل التجريبي، سيكون لزاما علينا أن نعود إلى تحليل وتفكيك مكونات كل حقل على حدة، "النظري والتجريبي"، رغم تباينهما الشديد من حيث الطبيعة، إذ يبدو الأول أكثر تجريدا، في حين أن الثاني أقوى واقعية. فما هي أهم مكونات هذين الحقلين؟ وما الغاية المتوخاة من القيام بهذه العملية؟

إن الرغبة في إنشاء نموذج يمكن من النظر في التاريخ الأدبي الأمازيغي على نحو مدرك لموضوع هذا النشاط الفكري، وبنوع من الممارسة الواعية للحدود المعرفية التي تفصله عن بعض الحقول المعرفية المجاورة، هي ما يبرر بحثنا في المفاهيم والأفكار الاجتماعية والإنسانية، التي يتكون منها الحقل النظري للتاريخ الأدبي، وذلك على خلاف الممارسات السابقة في هذا الشأن، التي غالبا ما تحجم عن هذا النوع من العمل لأسباب أو لأخرى. غير أن هذه العملية لن تتم إلا إذا قمنا بفحص مكونات الحقل التجريبي التي هي عبارة عن وقائع أدبية واجتماعية.

3.3. من التاريخ الأدبي "التقليدي" إلى التاريخ الأدبي "النسقي"

يتشكل النسق العام للتاريخ الأدبي من نسقين: نسق مغلق؛ أي نسق التاريخ الأدبي التقليدي، ونسق التاريخ الأدبي المدرَك كأنساق. هنا إذن سيبدو التاريخ الأدبي المتمحور حول الأدب أو الظاهرة الأدبية كموضوع غير متجانس وغير منظم، كما أن هذا الفهم للتاريخ الأدبي"المدرك كأنساق" سيساعد على تحليل وتقييم موضوعه الأدب أو الظاهرة الأدبية، في وظيفيته Fonctionnalité وديناميّته ومقصديته وتحولاته، وهذا هو الجانب المهم في هذا النوع من التحليل.

بعد أن حددنا الغاية التي نرمي إليها، من خلال البحث في أهم مكونات الحقلين النظري والتجريبي، لا بأس أن نعود إلى هذه المكونات، ونحاول الاقتراب منها داخل سياقاتها المعرفية التي تؤطّرها.

يتكون الحقل النظري من مفاهيم[4] ونظريات ومسلمات تساعد كلها على بناء النموذج، الذي سنتمكن من خلاله من تفسير إشكالية التاريخ الأدبي الأمازيغي بين الضرورة الملحة والمنهجية المرتقبة. لكن هذا النوع من العمل لا يتحقق إلا عبر الحقل التجريبي. لذلك ارتأينا التركيز على مفهوم "النسق" كمفهوم مركزي تخدمه مجموعة من المفاهيم الفرعية، مع الأخذ بمبادئ نظرية التلقي ومسلماتها وفرضياتها كترسانة إجرائية تمكننا من خلق النموذج، والحرص على توفير حقل تجريبي تستثمر فيه هذه التصورات.

قد يطرح السؤال الآتي: لماذا اللجوء إلى مفهوم "النسق" بالضبط؟ أو بالأحرى لماذا التركيز على هذا المفهوم ؟ ثم ما هي الفائدة من هذا التناول؟

إن السيرورة التي يعتمدها التاريخ الأدبي في مفهومه "التقليدي"، والتي تتأسس على أن كل حركة أدبية تستدعي أخرى، كما هو الشأن بالنسبة للكلاسيكية والرومانسية... إلخ، كانت ترتكز على السيرورة التاريخية المتضمنة لمفهوم "نقل المعارف" الذي ينبني على مبدأي الاستفادة والتجاوز.

إن المراد بمبدأي الاستفادة والتجاوز هنا هو التأسيس لمبدإ تربوي يعتبر أن قيام حركة أدبية رهين بمدى قدرتها على تجاوز هفوات الحركة السابقة بعد عملية "تعليمية تعلّمية" من جهة، وبما تحمله هذه الحركة "الخلف" من مبادئ تربوية جديدة تتصل بالجوانب الروحية، الدينية، الوطنية، السياسية، الحضارية...إلخ من جهة أخرى. إن القسم الكبير من الممارسات التاريخية الأدبية قد تعاملت مع تاريخ الأدب من منظور المنهج الذري أو التحليل الجزئي، وهو منظور كلاسيكي ومدرسي أدى إلى نتائج هامة، ولكنها لم ترق إلى خلق تصور نظري خاص يميز مفهوم تاريخ الأدب ككيان أو كفعالية معرفية خلقت لنفسها عالمها الخاص الذي يميز معرفتها وفعلها وتأثيرها بأشكال مختلفة عن التاريخ وعن الأدب معا، ولكنها تستمد وجودها منهما معا (بوحسن، 1996: 39).

4.3. بين البنيوية والنسقية

تعود فترة ظهور المقاربة النسقية إلى الأربعينيات من القرن العشرين، إذ توافق ظهورها، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، مع أحداث الحرب العالمية الثانية. إلا أن المقاربة النسقية كموقف نظري تعود إلى ما قبل الفترة التاريخية المذكورة، إذ نجد جذورها، من حيث هي نظرة شمولية

[4] إن تناول هذه المفاهيم المكونة للحقل النظري، يفرض علينا الاقتراب منها في سياقاتها المعرفية والزمنية التي تؤطرها؛ إذ لا يمكننا أن نتحدث عن مفهوم " النسق" دون أن نستحضر " البنيوية" وأثرها في خلق وإنشاء هذا المفهوم، سيما حين اجتاحت في ستينيات القرن 20 جل الحقول المعرفية، فتأثرت بها أغلب المقاربات النقدية، إذ أصبحت في معظمها بنيوية التوجه، بل لقد صارت البنيوية "موضة" العصر، لتصبح بعد ذلك متجاوزة بفعل وعي منظريها بمحدوديتها وتحت تأثير السيرورة التاريخية الكفيلة بجعلها كذلك.

للظواهر تتبني على مفهوم "النسق"، في العديد من الاتجاهات الفلسفية والمواقف العلمية[5]. إلا أن المقاربة النسقية لم تتأسس كمنهج قائم بذاته في البحث، وكطريقة متميزة في فهم الظواهر، إلا بفعل التأثير الحاسم الذي مارسته الأحداث المرافقة للحرب العالمية الثانية، وما صاحبها من صراعات وتحولات على صعيد المعرفة العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية في الولايات المتحدة الأمريكية (Bertalanffy, 1993 :1)، وبفضل تضافر وتكاثف جهود علماء ينتمون إلى حقول وتخصصات علمية مختلفة: البيولوجيا ونظرية المعلومات والسبيرنتيكا، وهو ما نتج عنه ظهور موقف نظري عام يتأسس على ضرورة إقامة رؤية موحدة في معالجة المشاكل من منظور شمولي وعلمي "Interdisciplinaire".

ولتحديد الوضع الاعتباري لمفهوم "النسق" في علاقته بالبنيوية، نرى أن اللجوء إلى المنهج المقارن سيكون مفيدا في محاولة ملامسة الفرق بين كل من البنيوية والنسقية، وذلك من خلال طرح السؤالين التاليين: ما معنى أن نكون بنيويين وما معنى أن نكون نسقيين؟

أن نكون بنيويين في دراستنا لميدان من الميـــادين، معناه أن نحدد مكونـــات هذا الميدان في علاقة بعضها بالبعض الآخر، متجـاهلين بشكل إرادي مـاهية هذه المكونـات في تفردهـا(Oswald et Todorov, 1972).

يستشف من هذا التعريف أن البنيوي لا يسمح له بعزل العناصر المشكلة للظاهرة التي هو بصدد دراستها، وإنما عليه أن يتناولها مجتمعة.

أما أن نكون نسقيين في تناولنا لظاهرة معينة، فمعناه أن نفرض مسبقا بأن مكونات هذه الظاهرة –النسق تعكس مكونات ظاهرة أخرى – نسق آخر، وبالتالي فإن تحديد هذه المكونات لا يتم إلا بمقارنتها مع المكونات التي تتألف منها الظاهرة الأخرى–النسق الآخر، وهو ما يمنح لمفهوم " النظام" دورا تكوينيا مهما.

بناء على ما سبق، يمكن القول بأن البنيوية في معناها اللغوي تشير إلى الكيفية التي يبنى بها شيء ما؛ أي طريقة ترتيب العناصر وهي مفهوم مرتبط بالنسق، لأن البنية ترتكز حسب "بياجي" على خاصيات الكلية والتحولات والضبط الذاتي" (Moison, 1987:165) ولذلك يلتقي مفهوم البنية مع مفهوم النسق، بتبادل التأثير والتأثر مع محيطه، رغم كون البنية ذات مظهر مغلق؛ أي أنها لا ترتبط بتبادلات مع المحيط، بقدر ما تتبادل التأثير في ذاتيتها؛ أي بين العناصر المكونة لها.

إذا تأملنا الجوابين السابقين نخلص إلى أن الخيط الرابط بين التعريفين يتجلى في مفهوم إجرائي فرعي، ذي أصول بنيوية نسقية هو مفهوم "النظام"، الذي يوحي في عمقه بالترابط والانسجام المعقلنين، وتخدم هذا المفهوم بدوره جملة من المفاهيم الفرعية مثل: الجامع الأنطولوجي، والجامع الصوري، والجامع الشبهي، والانتظام، والاتصال، والانفصال...(مفتاح، 1996 ب: 96)

إن نوعية العلاقات والتفاعلات والسّيرورات والتحولات داخل النسق، تتحدد بالغاية Finalité التي يسعى هذا النسق إلى تحقيقها، كما أنها تتحدد بالوظائف Fonctions التي تقوم بها من أجل تحقيق تلك الغاية.

خلاصة:

إن الاعتماد على النظرية العامة للأنساق في تناول مفهوم التاريخ الأدبي، سواء في جانبه المفهومي أو أثناء الممارسة، يبدو أكثر ملاءمة لدراسة التاريخ الأدبي الأمازيغي باعتباره يتضمن عدة أنساق: الأدب (الشفهي والمكتوب)، والنصوص المختلفة، والمجتمع ومؤسساته وما تتبادله من تأثير يجبرها على التغيير بفعل الحركية والسكون (Moison, 1987:165)

[5] أشار: (Bertalanffy, 1993 : 9) إلى أن بوادر مفهوم النسق ظهرت عند العديد من الفلاسفة والمفكرين قبل القرن 20 بكثير أمثال: ابن خلدون، وهيكل، وماركس وغيرهم.

إن التحليل النسقي لمفهوم التاريخ الأدبي، يسمح بصرف الاهتمام نحو بعض العناصر الهامة التي يتألف منها الحقلان النظري والتجريبي، وكذا نحو القدرة على الاهتمام بها مجتمعة أو منعزلة في ذات الوقت داخل كل حقل على حدة.

إن التركيز على "النظرية العامة للأنساق" في تناولها لمفهوم التاريخ الأدبي، ينبثق من قناعة أساسية ترى أن التاريخ الأدبي عامة والأمازيغي على نحو خاص هو مزيج من عدة أنساق، لا يستقيم البحث فيه دون استحضارها كلها في حركيّتها وسكونها.

البيبليوغرافيا

أقضاض، محمد. (تنسيق)،(2006)، تاريخ الأدب الأمازيغي مدخل نظري، سلسلة موائد مستديرة رقم:1. منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط.

بوحسن، أحمد. (1996)، "مفهوم التحقيب وتاريخ الأدب"، *إشكال التحقيب*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 56، ص 29–40.

بوحسن، أحمد. (2003)، *العرب وتاريخ الأدب : نموذج كتاب الأغاني*، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.

مفتاح، محمد. (1994)، *التلقي والتأويل: مقاربة نسقية*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

مفتاح، محمد. (1996)، "مقترح تحقيب جديد للثقافة المغربية"، *إشكال التحقيب*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 56، ص 67–76.

مفتاح، محمد. (1996)، *التشابه والاختلاف: نحو منهاجية شمولية*، المركز الثقافي العربي.

يشو، بنعيسى. (1999)، *قراءة في كتابات التاريخ الأدبي الحديث بالمغرب*، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب، بكلية الآداب، الرباط.

Bertalanffy, L. V. (1993), *La théorie générale des Systèmes*, Paris, Dunod.

Empère, J. J. (1871), *Histoire de la formation de la langue française, pour servir de complément à l'histoire littéraire française*, 3éme édition, Paris, Libères éditeurs.

Jauss. H. R. (1978), *Pour une esthétique de la réception*, traduit de l'Allemand par Claud Maillard Edit, Paris, Gallimard.

Moison, C. (1987), *Qu'est-ce que l'histoire littéraire*, Paris, P.U.F.

Oswald, D et Todorov, T. (1972), *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Paris, Seuil.

Stingers, I. (1993). *L'invention des sciences modernes*, Paris, La Découverte.